

كيف ومتى أخترع الشعب اليهودي

د. محمد عبد العزيز ربيع

هذا العنوان هو موضوع كتاب صدر في إسرائيل بالعبرية في عام 2008، وأثار ضجة كبيرة في المجتمع اليهودي، وقام الأستاذ الجامعي والمؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند بتأليفه. وبسبب ما أثار الكتاب من تساؤلات وما جاء فيه من حقائق علمية وتاريخية تنفي وجود شعب يهودي في الماضي وفي الحاضر، فإن جريدة ها آرتس الإسرائيلية قامت بإجراء مقابلة مع المؤلف نُشرت بالإنجليزية على موقع الجريدة على الإنترنت يوم 2008-3-21 تحت عنوان "تحطيم أسطورة وطنية لشعب" (Shattering a National Mythology). ويقوم الدكتور ساند الذي يعمل في جامعة تل أبيب من خلال تلك المقابلة بكشف أكاذيب يهودية عدة، منها حكاية سبي اليهود على أيدي الرومان وتشتتهم في كافة بقاع الأرض، وغيرها من حكايات وخرافات لفقها مؤسسو الحركة الصهيونية لتبرير قيامهم باستعمار فلسطين واستيطان أرضها وطرد شعبها منها. إن بإمكان من يريد الحصول على نسخة من المقابلة بلغتها الأصلية زيارة موقعنا الإلكتروني المذكور أدناه، حيث سيجدونها في زاوية مشاركات خارجية. في شهر أكتوبر عام 2009 تم نشر الكتاب باللغة الإنجليزية تحت عنوان : "The Invention of the Jewish People" مثير:

يقول الدكتور ساند أن اليهود الذين يعيشون اليوم في فلسطين وفي أماكن أخرى من العالم ليسوا من نسل اليهود الذي سكنوا في فلسطين في العهود القديمة التي رافقت وسبقت ظهور المسيحية، أي ليسوا من نسل القبائل الإسرائيلية، وإنما ينحدرون من شعوب عديدة مختلفة الأصول والأعراق اعتنقت اليهودية عبر التاريخ وكانت تسكن أساسا في منطقة البحر الأبيض المتوسط وفي المناطق المجاورة لها. ومن نسل تلك الجماعات جاء يهود اليمن ويهود شمال أفريقية ويهود أوروبا الشرقية. وهذا يعني أن يهود العالم، وحيث أنهم لا يشكلون شعبا واحدا، لا يتمتعون بأي حق من الحقوق الوطنية التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة وتعترف بها، ومنها حق إقامة دولتهم على أرضهم، وحق الاستقلال والسيادة الوطنية.

يقول الدكتور ساند إن الخرافة التي اخترعها الصهاينة الأوائل فيما يتعلق بوجود شعب يهودي قديم دفعتهم لممارسات عنصرية ضد الغير، حتى ضد اليهود الذين يختلفون معهم في الرأي، وذلك على ما يبدو لطمس الحقيقة وعزل الأكذوبة عن مجهر العلم. "لقد مرت أيام كان فيها كل من يقول بأن اليهود ينتمون لشعوب ذات أصول غير يهودية يتعرض فورا للاتهام بمعاداة للسامية". إن اليهود الذين تصفهم الحكاية

الصهيونية بأنهم شعب واحد عاش في المنافي في عزلة عن الغير، وأنه "تاه وتشتت وعبر بحارا وقارات ووصل نهاية الأرض، ثم عاد مع ظهور الصهيونية بأعداد كبيرة إلى الوطن اليتيم"، ليست إلا "أسطورة شعبية" لا أساس لها من الصحة. ويضيف ساند قائلا، إن محاولة اختراع شعب يهودي دفعت مؤرخو الحركة الصهيونية إلى كتابة تاريخ يصف اليهود بأنهم شعب تشكل منذ بدايات التاريخ، وأن "البراعم الأولى للقومية اليهودية تفتحت في ضوء الشعاع القوي الذي جاء من أسطورة مملكة داوود". وفي نفيه لهذه الأسطورة، يقول الدكتور ساند أن فكرة الشعب اليهودي ظهرت في القرن التاسع عشر فقط، وذلك حين قام بعض المثقفين من يهود ألمانيا، متأثرين بالحركة القومية الألمانية التي ألهبت حماس الجماهير، بالعمل على اختراع شعب يهودي حديث. ومنذ تلك الأيام "بدأ المؤرخون اليهود بكتابة كتب تصف تاريخ اليهودية على أنه تاريخ شعب كانت له مملكة، وأنه تحول إلى شعب من الضائعين، وعاد أخيرا إلى موطنه الأصلي".

كانت بداية البحث، كما قال الدكتور ساند، هي الاطلاع على بعض كتب التاريخ الحديثة للتعرف على الطريقة التي تم بها اختراع حكاية الشعب اليهودي، لكن التناقضات التي وجدها في تلك الكتب كانت كثيرة، مما دفعه لمواصلة البحث دون معرفة مسبقة بنهاية الطريق ولا بنتائج البحث المتوقعة. ولهذا "عدت إلى الكتب القديمة وحاولت تحليل المراجع الأصلية التي اعتمد عليها مؤلفو العصور القديمة وما كتبوه عن التحول إلى اليهودية"، أي ما كتبوه عن التبشير اليهودي ونشاطات إقناع الغير من الناس بترك دياناتهم واعتناق اليهودية. ولقد كانت دهشة الدكتور ساند كبيرة جدا حين اكتشف أن تاريخ اليهود وتاريخ اليهودية كما كتب في القرنين الأخيرين لا أساس له من الصحة، بل ويتناقض تناقضا تاما مع ما جاء في الكتب اليهودية والمسيحية القديمة.

وهنا يتعرض ساند إلى حكاية "الشتات" والسبي التي يعتبرها أيضا قصة مختلقة لم تحدث إطلاقا. إن اختراع حكاية السبي والتهجير كانت ضرورة "لتشكيل ذاكرة جماعية طويلة تتخيل شعبا أو قوما ينحدر مباشرة من الناس الذين عاشوا في زمن ظهور الإنجيل". لكن دهشة الدكتور ساند كانت عظيمة حين اكتشف أنه لا توجد كتب قديمة ولا مراجع علمية تتحدث عن السبي والتهجير، والسبب في ذلك "أنه لم يتم أي طرف بتهجير سكان تلك البلاد. إن الرومان لم يطردها أحدا، وإنه لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك حتى ولو أرادوا"، وذلك، كما يقول، لأنه لم يكن هناك قطارات ولا سيارات شحن، ولأن الفلاحين لا يتركوا أراضيهم.

وفي إجابة على سؤال حول ما إذا كان الفلسطينيون هم في الحقيقة سكان البلاد الأصليين، ما دام أن الرومان لم يقوموا بطرد السكان وتهجيرهم، قال ساند: "لا يمكن أن يحافظ شعب على نقائه العرقي عبر آلاف السنين.. لكن الصهاينة الأوائل، وحتى الثورة العربية (1936-1939) كانوا يعرفون أنه لم يكن هناك سبي ولا تهجير، وأن الفلسطينيين ينحدرون من سكان البلاد الأصليين.. حتى إسحاق بن تسيغي، ثاني رئيس لدولة إسرائيل، كتب في عام 1929 يقول إن الغالبية العظمى من الفلاحين والمزارعين الفلسطينيين لا تعود أصولهم إلى العرب الذين قاموا بفتح تلك البلاد، وإنما إلى من هم أقدم من ذلك بكثير، إلى الفلاحين اليهود الذين كانوا كثيرين وشكلوا أغلبية الناس الذين قاموا ببناء تلك البلاد".

إذا لم يتم طرد اليهود من بلادهم ولم تشتيتهم، فكيف ظهر ملايين اليهود حول منطقة البحر الأبيض المتوسط؟ كان هذا هو السؤال التالي الذي حاول للدكتور شلومو ساند الإجابة عليه، إذ قال "إن اليهود لم ينتشروا، إنما الديانة اليهودية انتشرت. لقد كانت اليهودية ديانة تبشيرية. وخلافا للمتعارف عليه شعبيا، كان هناك تعطش كبير لنشر اليهودية وإقناع الغير بالتحول عن دياناتهم إليها.. لكن بعد انتصار المسيحية في القرن الرابع الميلادي، توقفت عملية التبشير في العالم المسيحي، وقامت أعداد كبيرة على ما يبدو بالتحول من اليهودية إلى المسيحية. إلا أن عملية التبشير استأنفت نشاطاتها في المناطق وبين الناس الذين اعتنقوا ديانات وثنية مثل اليمن وشمال أفريقية. ولو أن اليهودية لم تتوسع في تلك المرحلة ولم تستأنف نشاطاتها التبشيرية، لبقيت اليهودية ديانة ثانوية، أو لكان من الصعب عليها أن تعيش".

إذن من أين جاء يهود اليوم، وما هي الجذور العرقية التي ينتمون إليها، وإلى أي بلاد تعود تلك الجذور؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه اعتمادا على دراسة وتحليل واستنتاجات الدكتور شلومو ساند. وبعدها سنحاول تقييم أهمية هذه الاستنتاجات والحقائق العلمية والتاريخية وتحليل تبعاتها على مجمل الصراع العربي الإسرائيلي وعلى مستقبل "عملية السلام" وواجب العرب عامة والفلسطينيين خاصة في المرحلة القادمة، وذلك في مقالنا القادم تحت عنوان: "يهود فلسطين وأرض الشتات".

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com